تحليل رسالة الصاحب بن عبّاد (التهنئة ببنت)

١-المقدمة

اختلفت النظرة إلى البنات، في البيئة العربية، بين المدح والذم، وإن كان الوأد نصيب كثيرات في الجاهلية، إلاّ أنه لم يكن ظاهرة عامة. والدليل على ذلك أن بعض العرب رفض هذه الظاهرة، وفدى الكثيرات وأنقذهن من المصير المحتوم. أمّا في الإسلام فلنا في رسول الله الأسوة الحسنة، فقد روي أنه لمّا بُشِّر بفاطمة قال: ريحانة أشمها، ورزقها على الله. وكانت محبته لبناته مضرب المثل. ويروي ابن عباس أن أوس بن ساعدة الأنصاري، دخل على الرسول، فرأى الرسول في وجه أوسٍ الكراهية، فقال: يا ابن ساعدة، ما هذه الكراهية التي أراها في وجهك؟ قال: يا رسول الله إن لي بنات، هن المُجْملات عند النعمة، والمنيعات عند المصيبة، ثقلهن على الأرض ورزقهن على الله. وتندرج رسالة الصاحب بن عباد ضمن رسائل التهنئة التي انتشرت في العصر العباسي ، بيد أن الرسالة ابتعدت عن الموضوعات المتداولة واختارت لنفسها الخوض في موضوعة ثقافية تخص صورة المرأة / الأنثى في المجتمع العربي ، وسنحاول أن نحلل نص رسالة الصاحب النثرية ؛ لنقف تمثيله للخطاب .

٢-الصاحب بن عبّاد

أبو القاسم إسماعيل بن عباد بن العباس بن عباد بن أحمد بن إدريس الملقب بـ (كافي الكفاة)، والصاحب وزير مؤيد الدولة، ثم فخر الدولة، ولي الوزارة ثماني عشرة سنة ، وهو أحد كتاب الدنيا الأربعة ولد في إحدى كُوَر فارس بأصطخر أو طالقان وهو أوّل من لقب بـ (الصاحب) من الوزراء في الدولة البويهية، لأنه كان يصحب أبا الفضل بن العميد فقيل له: صاحب ابن العميد ثم أطلق عليه هذا اللقب لما تولّى

الوزارة بعد ابن العميد سنة (٣٦٧هـ)، توفى الصاحب في صفر سنة خمس وثمانين وثلاثمائة عن تسع وخمسين سنة.

مؤلفاته: تميزت مؤلفاته بالموسوعية المتنوعة الكثيرة التي ضمَّت علوم الكلام، والفقه، والحديث، واللغة، والنحو، والأدب، والشعر، والطب ومنها:المحيط في اللغة بعشرة مجلدات رتّبه الصاحب على حروف المعجم، هو أبرز مؤلفات الصاحب طبع بتحقيق الشيخ محمد حسن آل ياسين بيروت١٩٩٤ م ، وديوان شعره: طبع بتحقيق الشيخ محمد حسن آل ياسين، ط١ مكتبة النهضة ـ بغداد ١٩٦٥ م ط٢ دار القلم بيروت١٩٧٤ م ، والأمثال السائرة من شعر المتنبي: طبع بتحقيق: الشيخ محمد حسن آل ياسين، بغداد ١٩٦٥ م ، والوقف والابتداء، وأسماء الله تعالى وصفاته، وكتاب في علم الكلام، وديوان رسائله عشرة مجلدات، وغيرها من الكتب .

٣-النص

رسالة في التهنئة ببنت (أهلا وسهلا بعقيلة النساء وأم الأبناء وجالبة الأصهار والأولاد الأطهار والمبشرة بإخوة يتناسقون نجباء يتلاحقون

فلو كان النساء كمثل هذي لفضلت النساء على الرجال

وما التأنيث لاسم الشمس عيب ولا التذكير فخر للهلال

فادرع يا سيدي اغتباطا واستأنف نشاطا فالدنيا مؤنثة والرجال يخدمونها والذكور يعبدونها والأرض مؤنثة ومنها خلقت البرية وفيها كثرت الذرية والسماء مؤنثة وقد زينت بالكواكب وحليت بالنجم الثاقب والنفس مؤنثة وبها قوام البدن وملاك الحيوان والحياة مؤنثة ولولاها لم تتصرف الأجسام ولا عرف الأنام والجنة مؤنثة وبها وعد المتقون ولها بعث المرسلون فهنيئا هنيئا ما أوليت وأوزعك الله شكر ما أعطيت وأطال بقاءك ما عرف النسل والولد وما بقي الأمد وكما عمر لُبَد)

الكلمة	معناها
عقيلة	سيدة كريمة
الصهر	القريب بالزواج
ادرّع	لبس الدرع
اغتباط	حُسن الحال، والمسرّة، والرضا التام الدائم
استأنف	أخذ فيه وابتدأه ، أي استقبله .
نشاط	ممارسة فعلية لعملٍ ما، عكسه كسل
أوليت	أُعطيت
أوزعك	ألهمك
الأمد	الغاية
لُبَد	نسر لقمان بن عاد الأخير في الاسطورة

٤-البنية الدلالية

عنوان النص : فارق عنوان النص السائد الثقافي فعند ما نفتش في موضوعات رسائل التهنئة في العصر العباسي ، سنجدها تتوزع بين التهاني الديوانية ، والتهاني الاخوانية ، ونص الصاحب بن عباد يقع ضمن التهاني الاخوانية بيد أنه اختار التهنئة بالبنت ، التي حاولت السردية القديمة التقليل منها على مستوى الفعل والانجاز ، فبعض الامثال تقلل من قيمة المولود الانثى (بئس الولد البنت ، نصرتها بكاء، وبرها سرقة) وقد رصد النص القرآني الصورة السلبية للبنت في المدونة الجاهلية عبر آية الوأد ، وقوله جل شأنه : ﴿ إِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ النحل : ٥٨-٥٩ ، ونص الصاحب بن عباد

يمثل انزياحاً ثقافياً عن المتداول ، وهي رؤية إسلامية تبناها الكاتب ، وحاول إيصالها إلى المتلقي .

٥-البنية البلاغية

قام النص على قصره على توظيف الصور البلاغية بجمالية ، خدمت البنية الدلالية ، فنجد بنية الاستعارة في قوله (ادرع يا سيدي اغتباطاً) فقد جعل للمسرة درعاً يتَحَصَّنَ بِهِ ، وقد استعمل فعل الامر استأنف على وفق المعنى الفقهي يقال :**استأنف** الأمر: أخذ فيه وابتدأه ، أي استقبله ، لينتقل بعد ذلك إلى إيراد الحجج المنطقية في تفضيل البنت وهو يكسر الرؤية السائدة في اقصاء المولود إذا كان أنثى ، ليتدرج في الحجاج من الحجة الاضعف إلى الاقوى:

- **فالدنيا مؤنثة والرجال يخدمونها والذكور يعبدونها .**
- **والأرض مؤنثة ومنها خلقت البرية وفيها كثرت الذرية .**
- **والسماء مؤنثة وقد زينت بالكواكب وحليت بالنجم الثاقب .**
- **والنفس مؤنثة وبها قوام البدن وملاك الحيوان .**
- **والحياة مؤنثة ولولاها لم تتصرف الأجسام ولا عُرف الأنام .**
- **والجنة مؤنثة وبها وعد المتقون ولها بعث المرسلون .**

وفي اختياره لنص المتنبي مقصدية لتمرير الخطاب ، والتمهيد لحججه التي سيسردها ، وهو ينظر إلى المساواة بين الذكر والانثى ، فليس تأنيث الاسم من العيوب التي تؤثر على ماهية الشمس ، كما أن التذكير الاسمي لا يؤثر على مكانة الهلال .

٦-البنية الايقاعية

من المعروف أن الفرق الجوهري بين الشعر والنثر هو الوزن والقافية ، فالشعر الكلاسيكي يقوم على بنية التوازي الايقاعي بين الشطرين ، في إطار البحور الشعرية

المعروفة ، فضلاً عن بنية القافية الي تعد لازمة موسيقية تتكرر في نهاية الابيات ، وقد تحلى النثر من الوزن بيد أنه اعتاض عن ذلك بالإيقاع الداخلي الناتج من توالي السجعات ، والاتيان بالجناسات بأنواعها المختلفة ، والتكرارات الصوتية ، وقد عُرف الصاحب بن عباد بشغفه بإيراد الجناسات ، وقد حفلت الكتب الادبية بذلك ، فنجده في هذا النص ، يختار الرشاقة الايقاعية ، ليلائم بين الايقاع والمعنى المتوخى إيصاله للمتلقي إذا ما علمنا بان النص يمثل الخرق الثقافي في الرؤية المتداولة ، فقد جانس بين (الاصهار – الأطهار ،اغتباطاً – نشاطاً ، البرية – الذرية) ؛ ليعطي النص دفقاً إيقاعياً يناسب التهنئة ، وقد ختم النص بوحدات موسيقية متلاحقة في :

ما عُرف النسل والولد

وما بقي الأمد

وكما عُمّرَ لُبَد

٧–تقويم النص وتمثيله للخطاب

يُعدُّ نص الصاحب بن عبّاد من النصوص النثرية المختلفة ، التي مثلت الخطاب المفارق للسائد في عصره ، فقد كانت صورة المرأة صورة سلبية ، تمتح من الانساق الثقافية العربية بنيتها ، حتى أننا نجد بعض المرويات في عصر الصاحب بن عباد تحاول تكريس الخطاب الاقصائي للمرأة مثل ما نجده في مُدونة أبي منصور الثعالبي خاصة في كتابه (تحسين القبيح ، وتقبيح الحسن) خاصة في باب تقبيح البنت .